الدرس الصوتي وأثره الدلالي في القرآن الكريم ــ حروف التفخيم نموذجً

إعداد

خالد محمد حماش

أستاذ النقد والبلاغة المشارك في جامعة الملك فيصل في الأحساء، المملكة العربية السعودية

المستخلص:

استعرض البحثُ آراءَ القدماء والمحدثين في مخارج حروف التفخيم وصفاتها، وتأثيرها فيما جاورها من الحروف ضمن قانون التسهيل والمماثلة، وقارن بين آراء الفريقين محاولاً التوفيق أو الترجيح فيما تعارض من آرائهما، مثبتًا براعة القدماء ودقتهم رغم قلة الإمكانات لقياس الأصوات التي توفرت للمحدثين.

وبيَّن البحثُ أن دافع القدماء في الدرس الصوتي هو الحفاظ على قراءة القرآن كما أقرأها الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته.

ثم تناول البحثُ الأثر الدلالي لحروف التفخيم في الدلالة مثبتًا أنَّ معظم الألفاظ التي حوت حرفًا أو أكثر من حروف التفخيم تفيد معنى مفخمًا.

الكلمات المفتاحية: الدرس الصوتي، وأثره الدلالي، في القرآن الكريم.

Research Abstract:

This study explores the perspectives of both classical and contemporary scholars on the articulation points and phonetic characteristics of emphatic consonants (tafkhīm) in Arabic, as well as their phonological effects on adjacent sounds within the frameworks of facilitation and assimilation. It undertakes a comparative analysis of the views of these two groups, striving to reconcile discrepancies or determine preference where their opinions diverge, while underscoring the precision and expertise demonstrated by classical scholars despite the absence of the advanced acoustic measurement tools available to modern researchers .

The study identifies the primary motivation behind the phonetic analysis of classical scholars as the preservation of the Qur'anic recitation as it was transmitted by the Prophet (peace be upon him) to his companions. Furthermore, it investigates the semantic implications of emphatic consonants, establishing that most words containing one or more of these sounds convey meanings associated with emphasis or strength.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد.. فإن اللغة العربية قد حظيت بعناية ربانية خاصة قبل نزول القرآن، إذ هيأ لها من القرائح الصافية والأذهان الذكية والبيئة المناسبة ما جعلها أهلاً لتلقي وحي السماء، كتابًا خالدًا خاتمًا لجميع الرسالات، معجزًا في نظمه وأسلوبه وتأثيره، باعتراف العرب جميعًا ممن آمنوا به وصدقوه، وممن اعترفوا بسمو بلاغته، وإن لم تكتب لهم السعادة بالإيمان، وممن كابروا بألسنتهم، وأقروا بعجزهم وسكوتهم عن محاولة الإتيان بسورة واحدة من مثله، عندما تحداهم مرة تلو المرة.

ثم زادت هذه اللغة بالقرآن بهاءً وجمالاً، وازدادت محبة أهلها لها، ففدوها بأرواحهم، وأوقاتهم، وعكفوا على تأملها ودراستها، ووضع القواعد لحفظها، عندما لمحوا شيئًا من اللحن والتغيير فيها، وضعوا لنا معجمات لحفظ مفرداتها، وقواعد للصرف والنحو لحفظ أبنية كلماتها وتراكيبها، وقواعد في البلاغة لحفظ أساليبها وضبطها، وكشف أسرار جمالها وتأثيرها.

ولم يفتهم أن يضعوا الضوابط الدقيقة لمخارج أصواتها وصفات حروفها وقواعد نطقها، وأثر بعضها في بعض، أثناء نطق الكلمات والجمل، وما يحدث فيها من تفخيم وترقيق وإدغام كامل وناقص، وما سوى ذلك؛ فقدموا لنا علمًا في الأصوات، سبقوا به العالم مئات السنين، وكان سببًا في حفظ أصوات هذه اللغة أمام التطور اللغوي، وأمام كثرة العاميات العربية وعيوبها ومشاكلها، حيث بقي النطق السليم الدقيق للقرآن خاصة والعربية عامة محفوظًا بالقواعد والتطبيق على مر الأزمان والعصور.

وهذا البحث تناول جانبًا من هذا العلم وهو: (أصوات الاستعلاء في العربية) وميزاتها وأقوال العلماء القدماء والمحدثين فيها، وأثرها على غيرها من الأصوات داخل التركيب، ثم عرج على أثر هذه الأصوات في الدلالة؛ راجيًا أن يكون خطوةً جادة في الكشف عن كثير من أسرار هذه اللغة الشريفة، وعملاً في التعريف بجهود علمائنا العظام في حفظها. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الاستعلاء والتفخيم لغة واصطلاحاً:

الاستعلاء لغة: الارتفاع والعلو، "علا في المكان من باب سما، واستعلى الرجل علا"[١]، "والعين واللام والحرف المعتل ياء كان أو واواً أو ألفاً يدل على السمو والارتفاع، لا يشذ عنه شيء"[٢]، "وعلا في الجبل: صعد، وعلا في الأرض: تكبَّر"[٣]، والاستعلاء ضد الانخفاض.

١ - مختار الصحاح الرازي (علا).
٢ - المقاييس، أحمد بن فارس ص ٦٩٠.
٣ - أساس البلاغة، الزمخشري.

أما **الاستعلاء اصطلاحًا**، فهو: ارتفاع اللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى[٤]. يقول ابن جني: "ومعنى الاستعلاء أن تتصعد في الحنك إلى الأعلى"[٥]، وهذا التعريف مستمد من سيبويه[٦].

وحروف الاستعلاء سبعة، جُمعت في قولهم: "خص ضغط قظ"[٧]، وهي مؤلفة من حروف الإطباق: ص ض ط ظ، والغين والخاء والقاف[٨].

قال ابن الجزري: "هي حروف التفخيم على الصواب، وأعلاها الطاء، كما أنَّ أسفل المستفلة الياء"[٩].

ولم يزد أحد على هذه الأصوات شيئًا، إلا أنهم ألحقوا بها اللام والراء المفخمتين[١٠]، ويمكن زيادة الألف المدية المفخمة إليها أيضًا.

سبب التسمية: من خلال المعنى الاصطلاحي، يتبين لنا سبب تسمية هذه الأصوات بـ(أصوات الاستعلاء)، أو أصوات المستعلية؛ لأن "الصوت يعلو عند النطق بها إلى الحنك، فينطبق الصوت مستعلياً بالريح مع طائفة من اللسان مع الحنك، هذا مع حروف الإطباق، ولا ينطبق الصوت مع الغين والخاء والقاف، وإنما يستعلي الصوت غير منطبق"[١١].

ويقول الحصري: ووصفت هذه الحروف بالاستعلاء، لاستعلاء أقصى اللسان عند النطق بها[١٢]. وينقل عن العلامة المرعشي: "إن المعتبر في الاستعلاء إنما هو استعلاء أقصى اللسان، سواء استعلى معه بقية اللسان أم لا"[١٣].

وفي وصف هذه الحروف بالاستعلاء مجاز، لأن المستعلي في الحقيقة إنما هو آخر اللسان، وأما الحروف فمستعل عندها اللسان، فكان حق التعبير أن يقال: الحروف المستعلي عندها اللسانُ، ولكن حصل فيه اختصار؛ فقيل الحروف المستعلية، وعلاقة المجاز المجاورة[١٤].

والتفخيم لغة: رجل فَخْمٌ، أي: عظيم القدر، و(التفخيم): التعظيم[١٥].

الاستعلاء اصطلاحًا: تعظيم الحرف بجعله في المخرج سمينًا، وفي الصفة قويًا، ويقابله الترقيق من الرقة، وهي النحافة ضدّ السمن، وتنحيف الحرف جعله في المخرج نحيفًا، وفي الصفة ضعيفًا. وعرف بعضهم التفخيم بأنه: النطق بالحرف غليظًا، ممتلئ الفم بصداه[١٦].

بين الإطباق والاستعلاء:

---

٤ - أحكام القرآن، الحصري ص ٩٠.
٥ - سر صناعة الإعراب ٦٢/١.
٦ - الكتاب ٢٦٤/٢
٧ - سر صناعة الإعراب ٦٢/١. حق التلاوة ص ٩٢.
٨ - التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري ص ١٠٠.
٩ - النشر ٢٠٢/١.
١٠ - حق التلاوة ص ٩٢.
١١ - التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري ص ١٠٠.
١٢ - أحكام قراءة القرآن ص ٩١.
١٣ - جهد المقل ص ٣٧، نقلاً عن أحكام قراءة القرآن ص ٩١.
١٤ - أحكام قراءة القرآن ص٩٢.
١٥ - مختار الصحاح (فخم).
١٦ - أحكام قراءة القرآن ص١٤٧.

كل مطبق مستعل، وليس كل مستعل مطبق، فإن حروف الاستعلاء تحتوي على حروف الإطباق كاملة، فحروف الإطباق كلها مستعلية، فبينهما خصوص وعموم[١٧] أي: إنَّ كل مطبقٍ مستعل، وليس كل مستعل مطبقًا.

وحروف الإطباق هي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء.

والإطباق لغة: من أطبق الشيء غطّاه وجعله مطبقًا[١٨] ومن هذا قولهم: أطبق الناس على كذا، كأن أقوالهم تساوت حتى صير أحدها طبقًا للآخر[١٩].

ولا يبعد المعنى الاصطلاحي عن هذا المعنى، يقول سيبويه: "إذا وضعت لسانك في مواضعهن، انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان، ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك، فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف"[٢٠].

ويقول ابن جني: "أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له"[٢١] فهو إذن إطباق، يحصل عند النطق بهذه الحروف الأربعة، بين ظهر اللسان والحنك الأعلى، يرافقه استعلاء بطبيعة الحال، أما بقية حروف الاستعلاء وهي: (الخاء، والغين، والقاف) فيرتفع معها أقصى اللسان؛ وهو الاستعلاء، ولو نظرت إلى المرآة وأنت تنطق هذه الأحرف الثلاثة الأخيرة؛ لرأيت ظهر أقصى اللسان يرتفع إلى الحنك الأقصى، ولو نظرت إلى المرآة وأنت تنطق حروف الإطباق لما شاهدت ظهر اللسان أصلاً، لأنه في هذه الحالة يكون جلّه مرتفعًا إلى الحنك الأعلى، وهذا هو الفرق بين الإطباق مع الاستعلاء، وبين الاستعلاء بدون إطباق، والله أعلم بالصواب.

ومن عجيب الموافقات أن رسم أصوات الإطباق الأربعة يبدأ بشكل (صـ) وهو قريب من شكل اللسان أثناء النطق بهذه الأصوات.

والإطباق درجات؛ فهو على الإجمال إطباق، ولكن قد يزيد كثيرًا حتى يغلق مخرج الحرف تمامًا، وهي صفة الشدّة، فيجتمع مع الإطباق شدة، فالشدة اشتداد الحرف في مخرجه؛ حتى لا يخرج مع صوت[٢٢] فإذا اجتمع - أيضًا - مع الشدة جهر، والجهر منع النَّفَس أن يجري معه عند النطق به لقوته وقوة الاعتماد عليه في موضع خروجه[٢٣] عندها لابد لإخراج هذا الصوت من أحد أمرين: إما بالحركة، إن كان متحركًا، فيكون إخراج الحرف بالتباعد، أي: بتباعد عضوي المخرج، فإن كان الحرف ساكنًا لسبب نحوي أو صرفي، فلابد من القلقلة لإخراج الحرف حيث يقلقل الحرف أو يلقلق[٢٤] ليتمكن الهواء من التسرب والخروج، فيظهر الصوت.

وسميت القلقلة بهذا الاسم لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقوف على حروف القلقلة، وزيادة إتمام النطق بهن[٢٥].

وحروف القلقلة خمسة يجمعها (قطب جد) وذلك لاجتماع الشدة والجهر فيهن.

---

[١٧] - المصدر نفسه.
[١٨] - مختار الصحاح (طبق).
[١٩] - المقاييس، أحمد بن فارس ص٦٣١.
[٢٠] - الكتاب ٤٠٦/٢.
[٢١] - سر صناعة الإعراب ٦١/١.
[٢٢] - التمهيد ص٩٨
[٢٣] - المصدر السابق ص٩٨.
[٢٤] - نفسه ص١٠١.
[٢٥] - نفسه ص١٠١.

والحرف الوحيد المقلقل من بين حروف الإطباق هو (الطاء)، وهو أعلى درجات الإطباق إطباقًا، والظاء أضعفها، والصاد والضاد متوسطتان[٢٦].

ومن الفروق بين أصوات الإطباق وبقية أصوات الاستعلاء؛ أن أصوات الإطباق مخارجها في غير منطقة الإطباق، وإنما إطباق اللسان مع الحنك الأعلى هو عرض يحصل مع خروج الحروف من مخارجها، أما الغين والخاء والقاف فهي قريبة جداً من منطقة الإطباق، فبذلك اشتركت مع حروف الإطباق بصفة الاستعلاء؛ لما في رفع مؤخر اللسان إلى الحنك الأعلى من الاستعلاء والتفخيم[٢٧].

ويقسم الدكتور أحمد مختار عمر الأصوات المفخمة إلى ثلاثة أنواع:

أ- أصوات كاملة التفخيم (ص- ض- ط - ظ واللام المفخمة).

ب- أصوات ذات تفخيم جزئي وهي: (خ - غ - ق).

ج- صوت يفخم في مواضع ويرقق في مواضع وهو: الراء[٢٨].

والتفخيم عند معناه: ارتفاع مؤخر اللسان إلى أعلى قليلاً، في اتجاه الطبق اللين، وتحركه إلى الخلف قليلاً، في اتجاه الحائط الخلفي للحلق، ولذلك يسميه بعضهم (الإطباق) بالنظر إلى الحركة العليا للسان، ويسميه بعضهم (التحليق) بالنظر إلى الحركة الخلفية للسان، ويلاحظ أن حروف الإطباق لها مقابل مرقق؛ فالصاد تقابلها السين، والضاد تقابلها الدال، والطاء تقابلها التاء، والظاء تقابلها الزاي.

أما الخاء والغين والقاف فليس لها مقابل مرقق؛ ولذلك تتساهل اللغة في ترقيقها؛ لأنه لا يترتب عليه تداخل فونيمي. وربما يكون هذا الحكم في غير قراءة القرآن، أو في اللغات العامية، ولم ينبه الدكتور أحمد مختار إلى أن اللام في أغلب حالتها مرققة.

ويمكن أن نخلص مما ذكرناه إلى أن حروف الاستعلاء نوعان: نوع دائم التفخيم، وهي المجموعة في قولهم: (خص ضغط قظ) لا يستثنى منها شيء في حال من الأحوال، ونوع عرضي التفخيم، وهي (اللام والراء) أما اللام فتفخم في اسم الله تعالى، بعد فتحة أو ضمة إجماعاً، أو بعد بعض حروف الإطباق في بعض الروايات، وأما الراء فتفخم إذا كانت مضمومة أو مفتوحة مطلقاً، في أكثر الروايات، والساكنة في بعض الأحوال، على تفصيل في ذلك، وهذان الحرفان في حال تفخيمهما يكونان من الحروف المستعلية[٢٩].

والألف المدية تفخم أيضاً، إذا سبقها حرف مفخم، ويبدو أنهم لم يذكروها مع الحروف المفخمة؛ لأنها تبع لما قبلها، يقول ابن الجزري: "وأما الألف فالصحيح أنها لا توصف بترقيق ولا تفخيم، بل بحسب ما تتقدمها؛ فإنها تتبعه ترقيقاً وتفخيماً، ولذلك لا تكتب لوحدها في الحروف الهجائية، وإنما توضع مع حرف اللام، فتكتب هكذا (لا) وما وقع من كلام بعض أئمتنا من إطلاق

---

[٢٦] - الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب القيسي ص١٢٢-١٢٣، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار عمان، ١٤٠٤هـ.

[٢٧] - الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس ص٨٠.

[٢٨] - دراسة الصوت اللغوي ص١٠٤.

[٢٩] - جهد المقل، المرعشلي ص٣١، عن أحكام تلاوة القرآن ص٩٢.

ترقيقها، فإنما يريدون التحذير مما يفعله العجم، من المبالغة في لفظها إلى أن يصيروها كالواو"[٣٠].

واختلف في مراتب حروف الاستعلاء، فبينما عدّ مكي بن أبي طالب القاف أشدها استعلاء[٣١]، نرى ابن الجزري قد عدّ الطاء أعلاها استعلاء[٣٢].

واللافت للنظر أن هذين الحرفين من حروف القلقلة التي يجتمع فيهما الجهر والشدة، فكأن الجهر والشدة زادا من استعلائهما.

ومن يذهب إلى أن الإطباق زيادة في الاستعلاء، يرى أن الصواب مع ابن الجزري؛ لأن الطاء مطبقة، فهي أعلى حروف الاستعلاء استعلاء وتفخيماً، والحق أن تذوق القاف مع الطاء يكاد يقطع بأن القاف أكثر تفخيماً.

وقد رتب الشيخ محمود خليل الحصري حروف الاستعلاء في القوة على هذا الشكل: ط، ض، ص، ظ، ق، غ، خ، من غير تعليل أو مصدر[٣٣].

وتتفاوت حروف الاستعلاء في التفخيم بحسب حركتها، وما يليها من أصوات، فإن أعلى درجات التفخيم إذا جاء بعد حرف الاستعلاء ألف مدية مثل: (خائفين، وغالبين) يليها في التفخيم حالة مجيء حروف الاستعلاء مفتوحة ، مثل: (خَلَقوا) يليها حالة الحرف المستعلي مضموماً مثل: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ عبس: ١٧، يليها حالة الحرف المستعلي ساكناً مثل: ﴿يخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ القصص: ٦٨، يليها حالة الحرف المستعلي مكسوراً مثل: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ﴾ هود: ٤٤، وحروف الاستعلاء وما لحقها لا تخرج عن التفخيم في كل هذه الحالات، ولكن تتفاوت درجات التفخيم ارتفاعاً وانخفاضاً[٣٤].

وهناك رأي وجيه، قاله صاحب نهاية القول المفيد، وهو أن اللام المفخمة في لفظ الجلالة أعلى مراتب التفخيم، أي أعلى من حروف الاستعلاء السبعة[٣٥].

وبعد هذا التمهيد في التعريف في الاستعلاء والإطباق والتفخيم في الأصوات العربية؛ يمكننا أن نتعرف على كل حرف من حروف الاستعلاء الدائم منها، وهي: (خص ضغط قظ) والعرضية، وهي: الراء واللام والألف المدية، ونبدأ بالحروف المطبقة، ثم الحروف المستعلية من غير إطباق، ثم المفخمة عرضاً.

الطاء:

قال الليث، قال الخليل: "والطاء والتاء والدال نطعية، لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى"[٣٦]، «والنِّطْع والنِّطَع والنَّطْع والنِّطعة: ماظهر من غار الفم الأعلى، وهي الجلدة الملتزقة بعظم الخليقاء، فيها آثار كالتحزيز، وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره: "هلك

---

٣٠ - النشر في القراءات العشر ٢٠٣/١- ٢١٥.
٣١ - الرعاية ص١٢٤- ١٢٥.
٣٢ - النشر ٢٠٢/١- ٢٢٠.
٣٣ - أحكام قراءة القرآن ص١٤٩.
٣٤ - التمهيد ابن الجزري ص١٢٨- ١٢٩، وينظر أحكام تلاوة القرآن محمود الحصري ص١٤٩- ١٥٠.
٣٥ - نهاية القول المفيد، الشيخ محمد مكي ص١٠٣.
٣٦ - العين ٥٨/١.

المتنطعون"[٣٧] هم: المتعمقون المغالون في الكلام، الذين يتكلمون بأقصى حلوقهم تكبرًا. قال ابن الأثير: هو مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى في الفم"[٣٨].

وبيّن سيبويه مخرج الطاء، مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا[٣٩] وبيّن صفاته فقال: «هو مجهور، مطبق شديد، ومن حروف الاستعلاء"[٤٠].

وقد وافق ابنُ جني سيبويه في كل ما ذهب إليه، وزاد عليه أنه صوت مشرب قائلاً: «واعلم أن في الحروف حروفاً مشربة، تحفز في الوقف، وتضغط عند مواضعها، وهي حروف القلقلة (ق، ج، ط، د، ب) لأنك لا تستطيع الوقوف عليها إلا بصوت؛ وذلك لشدة الحفز والضغط"[٤١].

والمقصود بالوقوف هنا السكون، يقول ابن الجزري: وذهب متأخرو أئمتنا إلى تخصيص القلقلة بالوقف، تمسكاً بظاهر ما رأوه من عبارة المتقدمين؛ أن المراد بالوقف ضد الوصل، وليس المراد سوى السكون، فإن المتقدمين يطلقون الوقف علي السكون... ونقل عن الأستاذ أبي الحسن شريح؛ أنه قال في كتابه (نهاية الإتقان في تجويد القرآن): "أن القلقلة تكون متوسطة كباء الأبْواب، ومتطرفة كباء لم يتبْ"[٤٢].

وأما عند المحدثين فالطاء صوت شديد (انفجاري) مهموس، يتكون كما تتكون التاء، غير أن وضع اللسان مع الطاء يختلف عن وضعه مع التاء، فاللسان مع الطاء يتخذ شكلاً مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى، ويرجع إلى الوراء قليلاً، وهو أسناني لثوي مفخم مطبق[٤٣].

والملاحظ أن المحدثين جعلوا الطاء مهموسة، على حين هي مجهورة عند القدماء، وقد وضع الدكتور كمال بشر ثلاثة احتمالات لتفسير هذا الخلاف:

الأول: أن القدماء أخطأوا التقدير، فظنوا أن الطاء مجهورة.

والثاني: أن الصوت تطور في نطقه، فلعلهم كانوا ينطقونه في القديم بما يشبه نطق الضاد الحالية، والضاد الحالية صوت مجهور، وهي النظير المطبق أو المفخم للدال، ومعنى هذا الكلام أن ضادهم كانت تختلف عن ضادنا الحالية، أي إنها صوت لا نظير له في نطقنا الحالي، ويؤيد هذا الاحتمال الثاني بشقيه نصُّ سيبويه، أن الضاد «لا يخرج من موضعها شيء غيرها"[٤٤] على حين أن ضادنا الحالية تخرج من منطقة التاء والطاء والدال، وهذا الاحتمال أخذ به د.إبراهيم أنيس[٤٥].

والثالث: لعلهم كانوا يصفون صوتاً يشبه طاء صعيد مصر، وبعض السودانيين، وهو صوت مشرب التهميز، وقد سجل هذه الملاحظة الدكتور تمام حسان[٤٦].

أما الاحتمال الأول فهو مستبعد؛ لما رأيناه من دقة الأولين في وصف الأصوات، كما أنها

---

[٣٧] - صحيح مسلم ٢٠٥٥/٤ رقم (٢٦٧٠).
[٣٨] - لسان العرب (نطع).
[٣٩] - الكتاب ٤٠٥/٢
[٤٠] - نفسه ٤٠٦/٢.
[٤١] - سر صناعة الإعراب ٦٣/١.
[٤٢] النشر ٢٠٣/١- ٢٠٤.
[٤٣] - الأصوات اللغوية د.إبراهيم أنيس ص٦٢، وعلم اللغة العام د.كمال بشر ص١٢٩، والمحيط ٢٨/١.
[٤٤] - الكتاب ٤٠٥/٢.
[٤٥] - الأصوات اللغوية ص٦٢- ٦٣.
[٤٦] - ينظر في كل ما تقدم مناهج البحث في اللغة ص٩٤.

من حروف القلقلة، التي لابد فيها من اجتماع الشدة والجهر، وإلا لما قلقلت لو كالت مهموسة، كما هو الحال في التاء والكاف، فهما شديدان مهموسان، وهمسهما حال بينهما وبين القلقلة، فإن صوت الهمس الخفيف عقب النطق بهما عند تسكينهما هو الذي جنب الحرف القلقلة.

وأما الثاني فيمكن التسليم به، إذا كان النظر في صفة الحرف إلى عامة الناس، أو إلى غير المدققين في مخارج الحروف وصفاتها من القراء المجيدين، الذين تلقوا القراءة عن شيوخهم، لأنه بالفعل لدى العامة وكثير من المثقفين قد تغيرت مخارج كثير من الحروف، بتأثير لهجاتهم، فيعرف المتحدث بالفصحى عادة، إن كان شامياً أو مصرياً أو عراقياً أو سودانياً، من خلال مخارج حروفه، أما قرّاء القرآن المجيدون المحققون فلا تظهر آثار لهجاتهم على قراءتهم، فإن كان المحدثون يتحدثون عن الطاء عند غير القراء المحققين، وهذا هو الأرجح، لأنهم في الغالب يعتمدون المنهج الوصفي، ويصفون اللغة لدى الناس، فإن الطاء لدى هؤلاء الناس قد تغيرت، ولا يبعد أن تكون قد تراجعت عن صفة الجهر؛ لقربها من التاء المهموسة، فقد تخرج لدى بعض الناس تاءً مستعلية، وقد سمعتها في عمران (محافظة في اليمن قرب صنعاء) قريبة من الضاد، فيقرأ بعضهم: (وأضيعوا الله) بدل ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ النساء:٥٩. وفي ذلك ما فيه من تغير في الدلالة.

وأما قول سيبويه الذي استدل به د. كمال بشر، فهو كلام دقيق، يعبر عن دقة مخرج الضاد، وتفرده وليس بالضرورة ألا يكون قريبًا من مخرج آخر، فإن مخرج الضاد لدى القراء له من الضوابط ما يحصنه من الاختلاط بغيره، ولكن مع كثير من الدقة والحذر والرياضة كما أشار القدماء.

وشيء آخر لابد من التنبيه إليه، وهو أن الجهر مراتب أيضًا، كما هو الحال في التفخيم وقد تكون الطاء أقل جهرًا من غيرها، وتذوق ذلك بالطريقة المعهودة بوضع الإصبع على الحنجرة، والنطق بالحرف يثبت ذلك.

ولا ننسى أخيرًا أن القرآن الكريم محفوظ، وحفظه يتطلب حفظ لغته، وفي مقدمة حفظ لغته حفظ أصواته، ومصداق ذلك ما رأيناه من الجهود الضخمة لعلماء القراءات والتجويد في ضبط هذا الأمر، وما أثبته علم الأصوات الحديث من دقة نظرهم وملاحظاتهم، برغم قلة الأدوات بين أيديهم أمام ما توفر للباحثين المحدثين، فأي حديث عن فقد بعض الأصوات وتطورها وتبدلها ينال من هذا الحفظ المؤكد، فينبغي أن نكون منه على حذر.

صوت الطاء ضمن قانون المماثلة:

إبدال الطاء من ثاء افتعلت: إذا جاءت فاء افتعلت صادًا، أو ظاءً، أو ضادًا تقلب طاءً البتة؛ وذلك لتتماثل مع أخواتها: الصاد والظاء والضاد في الإطباق والاستعلاء، نحو: اصتبر – اصطبر، واضترب – اضطرب، واظتهر – اظطهر – اظّهر.

يقول ابن جني: "لما رأوا التاء بعد هذه الأحرف، والتاء مهموسة، وهذه الأحرف مطبقة، والتاء مخفتة، قربوها من لفظ الصاد والضاد والظاء؛ بأن قلبوها إلى أقرب الحروف منهن، وهو الطاء؛ لأن الطاء أخت التاء في المخرج، وأخت هؤلاء الأحرف في الإطباق والاستعلاء، وقلبوها مع الطاء طاءً أيضاً؛ لتوافقها في الجهر والاستعلاء، وليكون الصوت متفقًا"[٤٧].

[٤٧] - سر صناعة الإعراب ١/٢١٧- ٢١٨.

إبدال الطاء من تاء فعلت، فحصت – فحصط، ضبطت – ضبطَ قياساً على اصطبر واطلع، وسببه شدة اختلاط الفعل بالتاء، حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من الكلمة[٤٨].

الظاء:

عدها الخليل من الأصوات اللثوية، مع الذال والثاء؛ لأن مبدأها من اللثة[٤٩]، وبين سيبويه أن مخرجها ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا[٥٠]. وصفاته: مطبق[٥١]مجهور رخو احتكاكي مستعل[٥٢]. وقد وافق ابنُ جني سيبويه في جهر الظاء[٥٣]. وهذا ما استقر الأمر عليه عند اللغويين والقراء[٥٤].

أما المحدثون فقد حددوا مخرجها بوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا العليا والسفلى، بصورة تسمح بمرور الهواء من خلال منفذ ضيق، فيحدث الاحتكاك مع ارتفاع مؤخرة اللسان تجاه أقصى الحنك، كما يرجع إلى الخلف قليلاً، فيحدث الإطباق، فالظاء صوت مما بين الأسنان، احتكاكي (رخو) مجهور، مفخم، مطبق، وينطق هذا الصوت خطأ، كما لو كان زاياً مفخمة، كما في اللهجات الشامية والمصرية، وبعض اللهجات تخرجه بشكل صحيح كما هو عند العراقيين[٥٥].

والخلاف بين القدماء والمحدثين في الظاء هو تسميته باللثوي، كما جاء عند الخليل، وشرح المفصل والنشر، ويتعجب د. إبراهيم أنيس من هذه التسمية، دون أن يعلق عليها[٥٦].

والحق أن الرأي الراجح هو ما ذهب إليه المحدثون، بدليل أننا لو حاولنا نطق الظاء بتقريب طرف اللسان من اللثة لظهر صوت آخر قريب إلى الضاد.

والظاء حرف خاص بالعرب، كما جاء في القاموس المحيط، وكما ذكر ابن جني؛ أن الظاء ليست من كلام النبط، بدليل أنهم يقلبونها طاءً، كما في ناطور، إذ إن أصلها ناظور[٥٧]، وإن كان بعضهم يعد الطاء فصيحة[٥٨]، في هذه الكلمة.

قانون المماثلة وحرف الظاء:

إذا جاءت فاء افتعل ظاءً تقلب التاء ظاءً مثلها، ثم تدغم في الأولى، نحو: اظتهر – اظظهر – اظّهر.

ومنهم من إذا كانت الفاء ظاء أبدل التاء طاء، ثم أبدل الظاء طاءً، وأدغم الطاء في الطاء؛ فيقول: اطّهر بحاجتي، وظلمته فاطَّلَم لي، وذلك لما بين الظاء والطاء من المقاربة في الإطباق والاستعلاء[٥٩].

---

٤٨ - المصدر السابق ٢٢٤/١.
٤٩ - العين ٥٨/١.
٥٠ - الكتاب ٤٠٥/٢.
٥١ - المصدر السابق ٤٠٦/٢.
٥٢ - نفسه ٢٦٤/٢.
٥٣ - سر صناعة الإعراب ٢٢٧/١.
٥٤ - ينظر النشر لابن الجزري ٢١٤/٢.
٥٥ - علم اللغة العام، كمال بشر ص١٥٢- ١٥٣.
٥٦ - الأصوات اللغوية ص٤٧.
٥٧ سر صناعة الإعراب ٢٢٧/١.
٥٨ - المصدر السابق ٢١٨/١.
٥٩ - نفسه.

الصاد:

عدَّها الخليل من الحروف الأسلية مع السين والزاي، لأن مبدأها من أسلة اللسان، وهي مستدق طرف اللسان[٦٠]. وقد جاء في لسان العرب: "وأسلة اللسان طرف شباته إلى مستدقه، ومنه قيل للصاد والزاي والسين أسلية... وفي كلام علي رضي الله عنه: "لم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم"[٦١]. وفي حديث مجاهد: "إن قطعت الأسلة فبين بعض الحروف، ولم يبين بعضاً، يحسب بالحروف، أي تقسم دية اللسان على قدر ما بقي من حروف كلامه التي ينطق بها لغته، فما نطق بها فلا يستحق ديته، وما لم ينطق به استحق ديته"[٦٢].

وأما سيبويه فقد أبقى مخرج الصاد مع الزاي والسين، إلا أنه جاء بها على غير ترتيب الخليل في المخارج، فقد جعلها بعد النطعية (ط، ت، د) على حين كانت عند الخليل قبلها، ويقول: «ومما بين طرف اللسان، وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد"[٦٣]. ثم ذكر صفة

الصاد فعده مهموسًا[٦٤]، مطبقًا[٦٥]، مستعليًا يمنع الإمالة رخوًا[٦٦].

وفي المفصل ما بين الثنايا وطرف اللسان، وهي مع الزاي و السين أسلية؛ لأن مبدأها من أسلة اللسان، وهو مستدق طرف اللسان، وهي حروف الصفير[٦٧]. وهي كذلك عند القراء، وفي مقدمتهم ابن الجزري[٦٨].

أما المحدثون فإنهم لا يكادون يخالفون القدماء في تحديد مخرج وصفات الصاد، فهو يخرج باعتماد طرف اللسان خلف الأسنان العليا، فهو لثوي (أسلي عند الخليل) المقابل المفخم (المطبق) للسين، مهموس احتكاكي (رخو عند سيبويه)[٦٩].

يقول د. إبراهيم أنيس: الصاد صوت رخو مهموس، يشبه السين في كل شيء سوى أن الصاد أحد أصوات الإطباق، فعند النطق بالصاد يتخذ اللسان وضعاً مخالفاً لوضعه مع السين؛ إذ يكون مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى، مع تصعيد أقصى اللسان وطرفه نحو الحنك، ومع رجوع اللسان إلى الوراء قليلاً، ككل الأصوات المطبقة[٧٠].

وأصوات التفخيم عند د. إبراهيم أنيس هي أصوات الاستعلاء عند القدماء[٧١]. وبالمقارنة بين القدماء والمحدثين؛ نجد أن المحدثين لم يزيدوا شيئًا على ما أتى به الأولون، فيما يخص صوت الصاد، من مخرج وصفات، قد يكون القراء زادوا على المحدثين صفة الصفير للصاد مع السين والزاي، كما جاء في المفصل والنشر، وقد تقدمت الإشارة إليه.

---

٦٠ - العين ٥٨/١.
٦١ - لسان العرب (أسل).
٦٢ - النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير ٤٩/١.
٦٣ - الكتاب ٤٠٤/٢.
٦٤ - الكتاب ٤٠٥/٢.
٦٥ - المصدر السابق ٤٠٦/٢.
٦٦ - نفسه ٢٦٤/٢.
٦٧ - ابن يعيش ١٠ / ١٢٥.
٦٨ - النشر ٢٠٣/١.
٦٩ - علم اللغة العام، د. كمال بشر ص١٥٣.
٧٠ - الأصوات اللغوية ص٧٦.
٧١ - المصدر السابق ص٨٠.

وهذا يدل على عمق تأويل وعبقرية نادرة عند علماء العربية الأوائل، مع عدم توافر الإمكانات والأجهزة المتوافرة في العصر الحديث.

قانون التماثل مع الصاد:

كثيرًا ما يحل صوت الصاد مكان السين، إذا ولي السين غين أو خاء أو قاف أو طاء، مثل: يساقون ويصاقون، وسقر وصقر، وسخّر وصخّر، وأسبغ وأصبغ، وسراط وصراط، وسقت وصقت، وسويق وصويق، وسلهب وصلهب، يقول الشاعر:

تَنِيْفُ إذا اقورَّت من القَوْدِ وانْطَوَتْ ... بهادٍ رفيعٍ يقهرُ الخيلَ صـلهبِ[٧٢]

ويجوز أن تكون الصاد في صلهب لغة، ويجوز ان تكون بدلاً من سـين سلهب؛ لأن سلهب أكثر تصرفاً من صلهب[٧٣].

والحكمة من ذلك عند سيبويه كراهية العرب أن ينتقلوا من الأسفل إلـى الأعلـى، ويفضلون أن يبدأوا بالأعلى، فيسهل عليهم الانحدار بعد ذلك[٧٤].

الضاد:

يعدها الخليل شجرية مع الجيم والشين؛ لأن مبدأها من شجر الفم[٧٥] أي مفرج الفم، وسيبويه جعل مخرجها من أول حافة اللسان، وما يليه من الأضراس[٧٦] كما عدها من حروف الإطباق والاستعلاء والرخوة المجهورة[٧٧] ويصفها بالاستطالة، «وأنها تخالط غيرها بعد خروجها، فتستطيل حتى تخالط حروف اللسان، فسهل تحويلها إلى الأيسر"[٧٨].

وثمة فرق بين الضاد الحقيقية ، والضاد الضعيفة، يشير إليه ابن يعيش في شرح المفصل قائلاً: "والضاد الضعيفة لغة قوم اعتاصت عليهم، فربما أخرجوها طاء، وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها، فلم يتأت لهم ذلك، فخرجت بين الضاد والظاء"[٧٩].

وتابع ابن جني سيبويه في كل ما ذهب إليه، وزاد عليه وصفا جديداً بقوله: "وأما الضاد فلأن فيها طولاً وتفشياً، فلو أدغمت في الطاء لذهب ما فيها من التفشي، فلم يجز ذلك"[٨٠] فإذا كان يقصد بالتفشي ما قصده سيبويه بالاستطالة فلا جديد عند ابن جني بخصوص الضاد، ما خلا مقولته: «واعلم أن الضاد للعرب خاصة، لا توجد في كلام العجم، إلا في القليل"[٨١].

يؤكد د. إبراهيم أنيس أن هذه المقولة بدأت تظهر في القرن الرابع الهجري، بعد أن ألّف الصاحب بن عباد كتابه الذي سماه: (الفرق بين الضاد والظاء)[٨٢] وذكر ذلك لابن فارس «وزعم ناس أن

---

٧٢ - كتاب الاختيارين للأخفش ص٨، والبيت لطفيل الغنوي .
٧٣ - سر صناعة الإعراب لابن جني ٢٠٩/١- ٢١٢.
٧٤ - الكتاب ٢٦٤/٢.
٧٥ - العين ٥٨/١.
٧٦ - الكتاب ٤٠٥/٢.
٧٧ - المصدر السابق ٤٠٦/٢.
٧٨ - نفسه ٢٦٤/٢.
٧٩ - شرح المفصل م٢/ج١٠ / ص١٢٧- ١٢٨.
٨٠ - سر صناعة الإعراب ٢١٨/١.
٨١ - سر صناعة الإعراب ٢١٤/١.
٨٢ - تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٢.

الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم[٨٣] ويقول ابن مكي الصقلي: "هذا رسم قد طمس، وأثر قد درس من ألفاظ جميع الناس، خاصتهم وعامتهم، حتى لا ترى أحداً ينطق بالضاد، ولا يميزها من ظاء"[٨٤] وهذا كلام قيل على سبيل المبالغة، وليس على سبيل الحقيقة.

كما يُضعّف د. إبراهيم أنيس[٨٥] الحديث القائل: "أنا أفصح من نطق بالضاد"[٨٦] وقد نبه قبله إلى ذلك ابن الجزري، وقال إنه حديث لا أصل له ولا يصح[٨٧].

ومما تمتاز به الضاد؛ أنها من بين خمسة أحرف، يدغم فيهن ما قاربهن، ولا يدغمن هن فيما قاربهن، وهن الراء والشين والفاء والميم (ضم شفر)[٨٨].

وأما عند المحدثين فالضاد صوت مخرجه أسناني لثوي، وصفته مجهور انفجاري (شديد) مفخم (مطبق)[٨٩].

يقول د. إبراهيم أنيس: "والضاد في أيامنا على ثلاثة أشكال، المصرية: أقرب إلى الدال، والعراقية أقرب إلى الظاء، حتى كادت أن تقاربها، والشامية وهي أقرب شيء إلى الوصف المحدث، ولو أنها صعدت قليلاً إلى موطن الظاء لقاربت اللفظ القديم، ولا عجب في ذلك؛ فالخلاف حول نطق الضاد قديم، فقد كان فريق من العرب في صدر الإسلام يخلط بين الضاد والظاء، وهي لغة حكاها الفراء عن المفضل[٩٠] قال الفراء: "من العرب من يبدل الضاد ظاءً فيقول: عظّت الحرب، ومن العرب من يعكس فيقول (الضهر) وهذا لا يجوز العمل به في كتاب الله تعالى"[٩١].

ويقول السيوطي: والضاد من أصعب الحروف في النطق[٩٢].

إذن فالخلاف بين القدماء والمحدثين حول الضاد هو أنها:

أـــ عند المحدثين أسنانية لثوية، على حين هي عند القدماء قريبة من وسط الحنك.

يقول د. كمال بشر: ويعود سبب الخلاف بيننا وبينهم إلى أحد أمرين:

١ـــ إما إخفاق الأولين في تحديد موضع مخرجها.

٢ـــ وإما اختلاف ضادنا عن ضادهم[٩٣].

وأراني أميل إلى الاحتمال الثاني؛ لأن صعوبة نطقها جعل مخرجها يزحف إلى الأمام قليلاً عند قوم، فتقترب من الظاء، وترجع قليلاً عند آخرين، فتقترب من الدال، والدليل على ذلك أن القراء الجيدين يحققونها على وصفها عند الأقدمين، وسرّ تحقيقها في صفة الاستطالة التي تميزت بها من سائر الأصوات؛ لأن اللسان بهذه الاستطالة ينفرش في أعلى الفم، حتى تصل إحدى حافتيه،

---

٨٣ - الصاحبي ص٧.
٨٤ - تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ص٩١، تحقيق د.عبدالعزيز رضا.
٨٥ - الأصوات اللغوية ص٥٥- ٥٦.
٨٦ - قال السيوطي أوردة أصحاب الغرائب ولا يعلم من خرجه ولا إسناده، جمع الوسائل في شرح الشمائل : أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري ١ ١١٧.
٨٧ - النشر ٢٢٠/١.
٨٨ - سر صناعة الإعراب ٢١٤/١.
٨٩ - علم اللغة العام د.كمال بشر ص١٣٢- ١٣٣، والأصوات اللغوية د.إبراهيم أنيس ص٤٧، والمحيط للأنطاكي ٢٨/١.
٩٠ - الأصوات اللغوية ص٥٥.
٩١ - معاني القرآن ص٤٩٩.
٩٢ - المزهر للسيوطي ٤٨/٢.
٩٣ - علم اللغة العام ص١٣٥.

فتلامس ما يحاذيها من الأضراس، أو كلاهما[٩٤]، وترك هذه الصفة التي تحتاج إلى رياضة وصبر في اكتسابها، هو الذي جعل هذا الصوت لا يتحقق له مخرجه الصحيح، والله أعلم بالصواب.

ب) عند المحدثين شديدة (انفجارية) وعند القدماء رخوة (احتكاكية).

وسبب هذا الخلاف أن الأقدمين يعدونها جانبية كاللام، وذكر ذلك باحث ذواقة؛ هو حفني ناصف، قال: "والضاد واللام يتوزعان حافة اللسان"[٩٥]، ولما فيها من التفشي والاستطالة، كما نص على ذلك سيبويه وابن جني.

والرأي أن نتمسك بوصف القدماء، مسترشدين بالقراء ونعلّم الناس النطق الصحيح، لا أن نسلم بما آل إليه حال الناس في نطقهم للضاد؛ لأن الأصل في وضع هذا العلم قديمًا هو الحفاظ على النطق الصحيح للقرآن والعربية، كما كان ينطق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الغين:

عد الخليل مخرجها من الحلق، وجعل ترتيبها الخامس في مدارج الحلق بعد العين والحاء والهاء والخاء، وجعل الخاء والغين في حيز واحد[٩٦].

وأما سيبويه فقد جعلها قبل الخاء في أدنى مرتبة في الحلق من الفم، وهي عنده صوت مجهور[٩٧] رخو[٩٨] مستعل[٩٩].

ونص شريح على أن الغين قبل الخاء، وهو ظاهر كلام سيبويه، ونص مكي على تقديم الخاء، وقال ابن خروف النحوي: إن سيبويه لم يقصد ترتيباً فيما هو من مخرج واحد[١٠٠]، كما يرى ابن يعيش أن الخاء أقرب إلى الفم من الغين[١٠١]، وذكر ابن جني أن الغين مجهور، مستعل، ورخو، موافقاً سيبويه[١٠٢].

أما المحدثون: فالغين عندهم هو النظير المجهور للخاء، مخرجه من أقصى الحنك احتكاكي (رخو)، يرتفع أقصى اللسان حال النطق بهذا الصوت، بحيث يكاد يلتصق بأقصى الحنك، وبحيث يكون هناك فراغ يسمح للهواء بالنفاذ مع حدوث احتكاك، وتتذبذب الأوتار الصوتية في حال النطق به[١٠٣]، وهو من أصوات التفخيم أو الاستعلاء[١٠٤].

ورغم أن الدكتور كمال بشر يضع الغين بعد الخاء فإنه يؤكد أن مخرج الغين والخاء واحد، ولا فرق بينهما، سوى بالجهر والهمس[١٠٥].

---

[٩٤] - ولذلك حدد ابن جني مخرجها فقال:"ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر"، سر صناعة الإعراب ٤٧/١.

[٩٥] - تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ص١٧- ٢٤.

[٩٦] - العين ٥٨/١.

[٩٧] الكتاب ٤٠٥/٢.

[٩٨] المصدر السابق ٤٠٦/٢.

[٩٩] - نفسه ٢٦٤/٢.

[١٠٠] - النشر ١٩٩/١.

[١٠١] - شرح المفصل ١٠/ ١٣٧.

[١٠٢] - سر صناعة الإعراب ٦١/١- ٦٥.

[١٠٣] - الأصوات اللغوية ، ابراهيم انيس ص٨٨، وعلم اللغة العام ، كمال بشر ، ص١٥٥.

[١٠٤] - الأصوات اللغوية ص٨٠.

[١٠٥] - علم اللغة العام ص١١٧.

الخاء:

هو من أصوات الحلق عند الخليل وسيبويه كما مرّ، والفرق بينه وبين الغين في المخرج ضئيل جدًا، حتى صعب تحديد السابق منهما في مدارج الحلق.

والخاء عند سيبويه صوت رخو[١٠٦](احتكاكي) مهموس[١٠٧]؛ مستعل[١٠٨]؛ وأشار ابن جني إلى أن الخاء حرف مهموس[١٠٩].

وعند المحدثين هو نظير الغين المهموس، وهو احتكاكي (رخو) ومخرجه من أقصى الحنك[١١٠]، وهو من أصوات الاستعلاء[١١١].

وذكر محمد الأنطاكي أن مخرجه طبقي، والطبق فيه يلتقي أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى، فـإن كان الالتحام تامًا حدث صوت الكاف، وإن كان غير ذلك حدث صوتا الغين والخاء[١١٢].

القاف:

يقول الخليل: "وأما مخرج الجيم والقاف والكاف فمن بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم"[١١٣]وجاء في لسان العرب : والعُكدة، والعَكَدة: أصل اللسان وعقدته، وفي الحديث: "إذا قطع اللسان من عقدته ففيه كذا"، العقدة أصل اللسان وقيل معظمه، وقيل وسطه[١١٤].

وهذا تحديد جيد لمخرج القاف والكاف، أما الجيم فلا ينطبق عليه تمامًا، وقد ذكر الخليل أن «القاف والكاف لهويتان والكاف أرفع"[١١٥].

ويحدد سيبويه مخرج القاف من أقصى اللسان، وما فوقه من الحنــك[١١٦]وصفاته: الجهر والشدة[١١٧]والاستعلاء[١١٨].

ويؤكد ابن جني ما جاء عند سيبويه ويضيف عليه؛ أن القاف من الحروف المشربة أو المقلقلة[١١٩] ويبدو أن مصطلح (مشربة) الذي يعني به القلقلة لم يلق قبولاً لدى الدارسين.

أما عند المحدثين فإن صوت القاف يخرج برفع أقصى اللسان، حتى يلتقي بأدنى الحلق

واللهاة، مع عدم السماح بمرور الهواء من الأنف، وبعد الضغط مدة، يطلق الهواء فجأة، فيندفع الهواء محدثا صوتاً انفجاريًا، ولا يتذبذب الوتران عند النطق به، فهو صوت لهوي شديد مهموس[١٢٠].

---

١٠٦ - الكتاب ٤٠٦/٢.
١٠٧ - المصدر السابق ٤٠٥/٢.
١٠٨ - نفسه ٢٦٤/٢.
١٠٩ - سر صناعة الإعراب ١٨٣/١.
١١٠ - علم اللغة العام ص١٥٤.
١١١ - الأصوات اللغوية ص٨٠.
١١٢ - المحيط ١٩/١.
١١٣ - العين ٥٢/١.
١١٤ - لسان العرب (عكد).
١١٥ - العين ٥٨/١.
١١٦ - الكتاب ٤٠٥/٢.
١١٧ - المصدر السابق ٤٠٦/٢.
١١٨ - نفسه ٢٦٤/٢.
١١٩ - سر صناعة الإعراب ٦١/١.
١٢٠ - علم اللغة العام ص١٣٨، والأصوات اللغوية ص٨٧.

ويؤكد الدكتور إبراهيم أنيس أن القاف عند مجيدي القراءات صوت شديد مهموس، ويذكر أن القاف في أيامنا تلفظ على ثلاثة أوجه:

١ــ قريبة من الغين لدى القبائل العربية في السودان، وبعض القبائل في جنوب العراق، ويقول: "وقد تكون هذه هي القاف المقصودة في كتب القدماء، والتي كان ينطق بها فصحاء العرب في العصور الأولى"[١٢١]أقول إن هذا الرأي مستبعد جدًا؛ لأن الغين صوت رخو، والقاف صوت شديد مقلقل، وما أبعد القلقلة التي سببها انحباس الهواء عند مخرج الحرف عن الرخاوة، التي تجعل الهواء يمر بيسر وسهولة.

٢ــ وهي همزة عند الشاميين والمصريين، أقول: وفي الغالب همزة مفخمة.

٣ــ تشبه الجيم المصرية، ولكنها أعمق في الحلق، وأكثر استعلاءً، وهذا نطق البدو للقاف، ومن خلال ما رواه ابن خلدون عن نطق البدو في عصره، أنها بين القاف والكاف، وأن هؤلاء البدو قبائل حجازية في المغرب كانت قد هاجرت في القرن الخامس الهجري، ويرجح د. إبراهيم أنيس أن تكون هذه القاف هي المقصودة باللغات القديمة المهجورة[١٢٢].

فالأمر لا يعدو أحدَ احتمالين في تطور النطق بالقاف، إما أن المخرج تراجع إلى الوراء، فلم يجد بين أصوات الحلق صوتاً شديدًا إلا الهمزة، وإما أن يكون قد تقدم إلى الأمام فكانت (الجيم المصرية) أقرب الأصوات له.

وعلى كل حال، فإنني أرى أن القاف التي ينطقها القراء المجيدون، الذين تلقوا قراءاتهم مشافهة عن شيوخ اتصل سندهم في القراءة، هم الذين يمثلون النطق الصحيح لهذا الحرف لا غير، وعلى علماء الأصوات أن يسعوا بكل الوسائل للعودة إلى النطق بالقاف إلى أصلها، وليس التسليم بواقع نطقها لدى الناس.

وقد تكون درجة جهرها قليلة، فالتبس على المحدثين قياسها، كما هو الحال في صوت الطاء.

الأصوات المفخمة عَرَضًا:

وبعد الانتهاء من استعراض الأصوات المستعلية (المفخمة) الملازمة للتفخيم، نستعرض ثلاثة أصوات أخرى تفخم في حالاك خاصة، فإذا زالت هذه الحالات الخاصة عادت إلى أصل تصنيفها، وهي الاستفال أو الترقيق.

الألف اللينة:

يقول الخليل: "وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق، مهتوتة مضغوطة، فإذا رفه عنها لانت، فصارت الياء والواو والألف عن غير طريقة الحروف الصحاح"[١٢٣]ويقول: "في العربية تسع وعشرون حرفًا، منها خمسة وعشرون صحاحًا، لها أحيازاً ومدارج، وأربعة جوف، وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة، وسميت جوفًا؛ لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من دارج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تنسب آليه إلا الجوف"[١٢٤].

---

١٢١ - الأصوات اللغوية ص ٨٠

١٢٢ - المصدر السابق ص٨٠، ٨٧.

١٢٣ - العين ٥٢/١.

١٢٤ - المصدر السابق ٥٧/١. (...لها أحياز..) وهو الصحيح.

وكان يقول كثيرًا: الألف اللينة والواو والياء هوائية؛ أي إنها في الهواء والألف اللينة من حروف العلة"[١٢٤]ويقول ابن جني: "فجميع الحروف صحيح، إلا الألف والياء والواو اللواتي هن حروف المد والاستطالة.. إلا أن الألف أشد امتداداً، وأوسع مخرجاً، وهو الحرف الهاوي،

ويقول: "والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو، وأوسعها و ألينها الألف... أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين، غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر"[١٢٦].

والألف اللينة لا تكون إلا ساكنة، ولا يبتدأ بها، ولا تكون أصلاً في الأسماء المتمكنة، ولا الأفعال، إنما تكون بدلاً أو زائدة[١٢٧]ولا تقبل الحركات، إذن فالألف اللينة صوت مدّي جوفي هوائي، لا يكون إلا ساكنًا، ولا يقبل الحركات، ولا يأتي ما قبله إلا مفتوحاً، ويتبع ما قبله في الصفة، كما مر معنا، فإن كان ما قبله مفخمًا كان مفخمًا، وإن كان ما قبله مرققًا رقق، ولا يلفظ وحده؛ ولذلك وضعه واضع حروف المعجم مع اللام (لا) خلاف بقية الأحرف التي رسمت وحدها[١٢٨]"ولا توصف الألف بترقيق ولا تفخيم، بل بحسب ما يتقدمها، فإنها تتبعه ترقيقاً وتفخيماً"[١٢٩].

اللام:

وضع الخليل مخرج اللام مع الراء، والنون من ذلق اللسان، من طرف غار الفم. وقال: "لا ينطلق اللسان إلا بالراء واللام والنون. وضم إلى هذه الحروف الحروف الشفوية ، وسمّى الجميع الحروف الذلقة، وهي كثيرة الدوران في الكلام العربي لذلاقتها، وما خلت كلمة رباعية أو خماسية من هذه الحروف إلا كانت من غير كلام العرب[١٣٠].

واللام صوت مجهور متوسط (بين الشدة والرخاوة) منفتح مستفل مرقق[١٣١]وتفخم من اسم الله تعالى بعد فتحة أو ضمة إجماعاً، أو بعد بعض حروف الإطباق في بعض الروايات القرآنية واللهجات العربية[١٣٢].

الراء:

من حروف الذلاقة، ومخرجها مع اللام والنون، من ذلق اللسان، من طرف غار الفم. وهو صوت مجهور، متوسط، منفتح، مستفل مرقق في الأصل[١٣٣]بمعنى أنها لم تصنف مع حروف الاستعلاء، ولكنها تفخم وجوبًا إذا كانت مفتوحة أو مضمومة، وإن كانت ساكنة سكونًا أصليًا وسبقت بفتح أو ضم أو كسر عارض كما في نحو: (ارتدوا، ارجعوا، اركعوا) أو كسر أصلي منفصل عنها بفاصل ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ المؤمنون: ٩٩، أو أصلي وبعدها حرف استعلاء (قرطاس، مرصاد) ويجوز تفخيمها وترقيقها في راء (فِرْقٍ) فتفخيمها لوجود حرف الاستعلاء بعدها ، وترقيقها للكسر الذي في حرف الاستعلاء، أو لكسر ما قبلها وبعدها، وفي (مِصْر) و (القِطرِ)

---

١٢٥ - نفسه ٥٢/١.
١٢٦ - سر صناعة الإعراب ٦٢/١
١٢٧ - المصدر السابق ٦٥٣/٢.
١٢٨ - ينظر النشر ١٩٩/١.
١٢٩ - المصدر السابق ٢١٥/١.
١٣٠ - العين ٥٢/١، ٥٨.
١٣١ - النشر ٢٠٢/١، ٢٠٣.
١٣٢ - المصدر السابق ٢١٥/١.
١٣٣ - سر صناعة الإعراب ٦١/١، ٦٢.

حال الوقف عليهما، واختار ابن الجزري[١٣٤] في (مصرَ) التفخيم وفي (القطرِ) الترقيق نظراً لحال الوصل. وفي ما سوى ذلك يجب ترقيقها[١٣٥].

«وانفرد صوت الراء بكونه مكرراً، صفة لازمة له لغلظه»[١٣٦] وقوله: لغلظه على التغليب، لأن أغلب حالات الراء التفخيم، وهذه الصفة تتجنب من غير مبالغة[١٣٧].

ومما يلفت النظر فيما مضى من استعراض آراء القدماء في مخارج هذه الأصوات وصفاتها، وفي مقدمة هؤلاء العلماء الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه، أن الخليل ذكر مخارج الحروف في كتاب العين، ولم يعرض لصفاتها، على حين ذكر سيبويه المخارج والصفات، وهذا يدعو للتساؤل: أيعقل أن يكون سيبويه - مع قرب وفاته من وفاة أستاذه - قد اكتشف صفات الحروف بعد أستاذه؟ والغريب في الأمر أن صفات الحروف عند سيبويه تكاد تكون مكتملة ناضجة.

والرأي عندي أن صفات الحروف كانت معروفة لدى الخليل ولكنه لـم يكتبهـا أو يضمنها في مؤلف كما هو الحال في كثير من آرائه النحوية، وإنما كان يمليها على تلاميذه، ومنهم سيبويه، الذي كان أكثر تلاميذه حرصاً على تسجيل آراء أستاذه ، التي ظهرت بعد ذلك في مؤلفه الشهير الكتاب، الذي حوى جلّ آراء الخليل ومن سبقوه في النحو والصرف والأصوات... والله أعلم.

تأثير حروف التفخيم فيما جاورها:

إن صفة الاستعلاء أو التفخيم والإطباق في أربعة من أصواتها، كما مرّ معنا قد أكسبت هذه الأصوات صفات مميزة عن بقية الأصوات، ضمن قانون المماثلة، فهي حروف قوية، قلما تتأثر بغيرها، وكثيراً ما تؤثر هي فيما جاورها من الأصوات، وهذه علامات عدة اختصت بها هذه الأصوات بسبب التفخيم، وهي أنها:

١) تمنع الإمالة: يقول سيبويه في باب ما يمتنع من الإمالة التي أملتها فيما مضى: "فالحروف التي تمنع الإمالة هذه السبعة: (ص، ض، ط، ظ، غ، ق، خ) إذا كان حرف منها قبل الألف منعت الإمالة؛ لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى، والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى، فلما كانت هذه الحروف مستعلية، وكانت الألف تستعلي، وقربت من الألف، كان العمل من وجه واحد أخفّ عليهم فيدغمونه، ولا نعلم أحداً يميل هذه الألف إلا مَنْ لم يؤخذ بلغته"[١٣٨].

ولعل سيبويه قد تسرع في هذا الحكم، فقد وردت الإمالة في بعض الكلمات التي سبقت فيها الألف بحرف من حروف الاستعلاء مثل: (النصارى) التي أمالها الدوري عن الكسائي[١٣٩] و(يرضى)[١٤٠] و(طه)[١٤١] و(أوصاني) و(أنصاري)[١٤٢] و(يلقاه) أماله ابن ذكوان، وله وجه بالفتح، و(فِي الْغَارِ) التوبة:٤٠، رويت بالإمالة عن الدوري ، وأمال حمزة الألف الواقعة عيناً من

---

١٣٤ - النشر ١٠٦/٢.
١٣٥ - أحكام تلاوة القرآن ص١٥٥، ١٦٣.
١٣٦ - النشر ٢١٨/١.
١٣٧ - المصدر السابق ٢١٩/١.
١٣٨ - الكتاب ٢٦٤/٢.
١٣٩ - النشر ٥٨/٢.
١٤٠ - الميسر في القراءات العشر ص٩٤.
١٤١ - النشر ٣١/٢.
١٤٢ - الميسر في القراءات العشر ص٩٧.

الفعل الثلاثي في عشرة أفعال؛ منها: خاف وطاب وخاب، وأمال المطوعي ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ﴾ البقرة: ١٠٢، و (أضاء) في الوقف، وهذه من القراءات العشر المعتمدة.

وقد أحسن أستاذي الأنطاكي عندما سماها مضعفات المقتضي للإمالة[١٤٢] والغريب أن صاحب النشر، الذي يكثر من النقل عن سيبويه، لم ينقل رأيه في هذه المسألة، ولم يرد عليه.

٢) تفخيم اللام: من المعلوم أن اللام صوت منحرف ذلق مستقل (مرقق) ولكنه يفخم - كما مر معنا - في اسم الله تعالى، إذا سبق بفتح أو ضم إجماعاً، وتفخم أو (تغلظ)[١٤٣] اللام بشرطين عند ورش[١٤٤]:

١ــ أن يجاور اللام الصاد أو الطاء أو الظاء، ساكنًا أو مفتوحًا، من دون فاصل؛ مثل: (يوصل، مطلع) أو بفاصل نحو: (طال، فصالاً، يصّالحا) واللام المشددة لا تعد فاصلاً، مثل: (يُصلّبوا، طلّقتم، ظلّ)[١٤٥].

٢ــ أن تكون اللام مفتوحة[١٤٦].

٣) تفخيم الراء: مرَّ بنا أنَّ من شروط تفخيم الراء أن تكون ساكنة وسبقها كسر أصلي متصل بها، ولحقها حرف استعلاء مضموم أو مفتوح في الكلمة نفسها، نحو: «قرطاس، مرصاد، فرق"[١٤٧] فقد كان حق الراء الترقيق، ولكن وجود حرف الاستعلاء بعدها جعلها مفخمة.

٤) تفخيم الألف المدية: وهي التي تلي أصوات الاستعلاء[١٤٨] وقد تحدثنا عنها سالفًا.

٥) تعذر إدغام أصوات الاستعلاء في غيرها من الأصوات إلا نادرًا وعلى خلاف:

ــ فقد أدغم أبو عمرو الضاد في الشين، بخلاف عنه في قوله تعالى: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ النور: ٦٢[١٤٩].

ــ وتدغم الصاد إذا سُكنت في التاء، ولكن مع إبقاء صفة الإطباق، للاحتفاظ بشخصيتها: ﴿لَئِن بَسَطتَ﴾ المائدة: ٢٨، ﴿فَرَّطتُمْ﴾ يوسف: ٨٠، ﴿أَحَطتُ﴾ النمل: ٢٢[١٥٠].

ــ وأدغم أبو عمرو الغين في مثلها، بخلاف عنه ﴿يَبْتَغِ غَيْرَ﴾ آل عمران: ٨٥[١٥١].

ــ وتدغم القاف في الكاف في ﴿نَخْلُقكُّم﴾ المرسلات: ٢٠، ولكن مع إبقاء صفة الاستعلاء عند الجميع، عدا أبي عمرو[١٥٢] علماً أن الكاف قريبة جدًا من القاف في المخرج.

يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "ويظهر أنَّ السر في ذلك، هو أن شيوع هذه الأصوات في اللغة قليل، هذا إلى أن هذه الأصوات تحتاج إلى جهد عضلي كبير في النطق بها، مما يستلزم لفنائها

---

١٤٣ - المحيط ٩٩/١.
١٤٤ - تستعمل هذه الكلمة مع اللام خاصة وهي بنفس معنى التفخيم، ينظر حق التلاوة ص٦٨.
١٤٥ - الميسر في القراءات ص١١٦.
١٤٦ - ينظر النشر ١١٩/٢.
١٤٧ - المصدر السابق.
١٤٨ حق التلاوة ص٧٢.
١٤٩ - المحيط ٤٣/١.
١٥٠ - الميسر في القراءات العشر ص٣٢.
١٥١ - النشر ١٩/٢، والميسر ص٣٣.
١٥٢ - الميسر ص٣٤.
١٥٣ - النشر ١٩/٢، والميسر ص٣٥.

من الكلام أن يمر الصوت في أكثر من مرحلة، مثل الانتقال من الاستعلاء إلى الاستفال، أو من الشدة إلى الرخاوة، أو من الجهر إلى الهمس وغير ذلك[١٥٤].

ومن الواضح أن قوة هذه الأصوات وفخامتها تأبيان عليها أن تذوب في غيرها.

٦) قلة مجيء الجيم مع حروف الاستعلاء؛ فإن الجيم من الأصوات المرققة، ولا تكاد ترد مع

صوت واحد من أصوات التفخيم، وقد نص الجواليقي في المعرب، والشهاب الخفاجي في شفاء الغليل على أن الجيم لا ترد مع الصاد والقاف والطاء في كلمة عربية، ولذلك اعتبرت الكلمات: منجنيق[١٥٥]؛ وصولجان[١٥٦]؛ وطاجن[١٥٧] أعجمية.

أما مجيء الجيم مع حروف التفخيم الأخرى فنادر جداً؛ مثل: خرج، نضج، جحظ[١٥٨].

٧) قلب الحرف المجاور لحروف الاستعلاء من مرقق إلي مفخم في مثل: سقت، صقت، سويق، صويق، بسط، بصط، سقر، صقر. والعلة أنهم يضعون ألسنتهم في موضع المستعلية، وثم يصوبون ألسنتهم، فالانحدار أخف عليهم من الإصعاد[١٥٩].

٨) إبدال تاء افتعلت طاءً، إذا كان فاء الفعل أحد حروف الإطباق، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الموضوع.

ومن ذلك كلمة ﴿تَصْطَلُونَ﴾ القصص:٢٩، حيث قلبت التاء طاءً، لمجاورتها الصاد، وكذا كلمة: (اصطبر)، و(اطَّلع).

٩) كثيرًا ما تتأثر الحروف المجاورة لحروف الاستعلاء، فتفخم لمجاورتها لها، فتتأثر بها، كالهمزة في كلمة: أخبر، وأصحاب، وأضغاث، وأطلع، وأغطش، وأرأيت، وأقبل، وكالهاء في مثل كلمة: تظاهرا، وتقهر، واللام في مثل كلمة: يصلاها، التي يمتد فيها تأثير التفخيم إلى الهاء والألف بعدها عند كثير من الناس.

ولذلك نبه علماء القراءات على الخطأ في هذا، وسمَّى ابن الجزري هذه العملية بتخليص الحروف، أي الاحتراز، ألا يؤثر بعضها في بعض، فيطغى الصوت المفخم على الصوت المرقق، والصوت القوي على الصوت الضعيف.

الأثر الدلالي لأصوات الاستعلاء في المفردات:

بعد أن تعرفنا على الميزات الصوتية لحروف الاستعلاء، وأثرها فيما جاورها من الأصوات، يحق لنا أن نتساءل: هل لهذه الأصوات أثر دلالي في المفردات التي ترد فيها؟ وهل هناك علاقة بين فخامة الحروف وفخامة المعنى؟ وهل بالضرورة أن تكون كل مفردة حوت حرفاً أو أكثر من حروف التفخيم أن يكون معناها مفخمًا؟!!

الحق أننا لا نستطيع أن نجزم بقانون حتمي لمثل هذه العلاقة؛ فاللغة العربية بعمرها المديد ونشأتها البعيدة في التاريخ، وسعة مفرداتها، وتنوعها، يصعب الإحاطة بها للوصول إلى مثل هذه

---

١٥٤ - الأصوات اللغوية ص١٨٨.
١٥٥ - قصد السبيل، المحبي ٣٦٦/١.
١٥٦ - المصدر السابق ٢٣٧/٢.
١٥٧ - نفسه ٢٤٦/٢.
١٥٨ - الأصوات اللغوية ص٨٠، ٨١.
١٥٩ - الكتاب ٢٦٥/٢.

النتيجة الحتمية، فلابد أن تخالف هذه القاعدة العديد من المفردات... ولكن المتأمل في كثير من المفردات العربية، يلحظ وجود مثل هذه العلاقة بين الألفاظ ومعانيها بشكل لافت للنظر، ولطالما ذكر النقاد حسن اختيار جرس الألفاظ في النصوص الأدبية؛ فما كان جرسها قوياً شديداً فخماً ناسب مواقف الحميّة والبأس والمعالي والفخر، وما كان جرسها رقيقاً سهلاً ناسب مواقف الغزل والنسيب وما شابه، وهل الجرس ناتج إلا عن صفات حروف الكلمات.

والحديث عن جرس الألفاظ وتناسبها مع معانيها يعيدنا إلى إحدى نظريات نشوء اللغة، وهي نظرية المناسبة الطبيعية التي قال بها عباد بن سليمان الصيمري (٥٢٥٠) من معتزلة البصرة[١٦١] التي لخصها ابن جني بقوله: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات إنما هو من الأصوات المسموعات ؛كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي وغير ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل"[١٦٢].

ولعل هذا الرأي فيما يخص نشأة اللغة يكون مقبولاً لدى لغات كثيرة، وإن كان الأمر لا يعدو الافتراض، الذهني المقبول عقلاً، ولكن اللغات عندما توسعت تجاوزت هذا الأمر، وأصبحت علاقة صفات الحروف بدلالتها أقرب إلى الاعتباطية كما ينص على ذلك علماء الألسنية المحدثون، وقد تنطبق هذه النظرية على عدد قليل من المفردات، أما في العربية فقد لاحظ القدماء، ومنهم ابن جني سعة هذه العلاقة؛ فهو يقول: "إن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهيًا بأجراسه وحروفه، أصوات الأفعال التي عبر عنها، ألا تراهم قالوا: قضم في اليابس، وخضم في الرطب؛ وذلك لقوّة القاف وضعف الخاء، وكذلك قالوا: صرّ الجندب، فكرروا الراء؛ لما هناك من استطالة صوته، وقالوا صرصر البازي، فقطعوه، لما هناك من تقطيع صوته، وسمَّوا الغراب: غاق، حكاية لصوته، والبط بطًّا، حكاية لأصواتها"[١٦٣].

ويقول ابن جني: "فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأصوات فباب عظـــيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره[١٦٤].

ويستدل على ذلك بأمثلة عديدة منها: القضم، والخضم؛ حيث جعلوا القاف لليابس لشدتها وقوتها، والخاء للرطب لرخاوتها، مع أن الحرفين مفخمان، وفي الخبر: «قد يدرك الخضم بالقضم» أي: قد يدرك الرخاء بالشدة[١٦٥].

ومن ذلك النضح والنضخ، وهما بمعنى واحد، إلا أن الثانية تدل على القوة التي عبر عنها صوت الخاء المستعلي، ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ الرحمن:٦٦، « فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه[١٦٦].

---

١٦٠ - المزهر في علوم اللغة للسيوطي ١٦/١.
١٦١ - الخصائص ٤٧/١- ٤٨، وينظر فقه اللغة العربية د. كاصد ياسر الزيدي ص٤٣.
١٦٢ - الخصائص ٦٦/١.
١٦٣ - المصدر السابق ١٥٩/٢.
١٦٤ - نفسه.
١٦٥ - الخصائص ١٦٠/٢.

وفي مقارنة بين كلمات ثلاث، وهي: قرت، وقرد، وقرط، يقول: « فالتاء أخفت الثلاثة، فاستعملوها في الدم إذا جف؛ لأنه قصد ومستخف في الحسن عن القردد، وهو النباك[١٦٦] الأرض ونحوها، وجعلوا الطاء، وهي أعلى الثلاثة صوتًا؛ للقرط الذي يسمع[١٦٧].

كما يفرق بين السين والصاد في كلمتي: الوسيلة والوصيلة فيقول: «والصاد أقوى صوتًا؛ لما فيها من الاستعلاء، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة، وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء... والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءًا أو كالجزء من المتوسل إليه، وهذا واضح، فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها، للمعنى الأضعف[١٦٨].

ومن ذلك سد وصد "فالسد دون الصد؛ لأن السد للباب يسد، والصدّ جانب الجبل والوادي والشعب، وهذا أقوى من السد الذي ي يكون لثقب الكوز ورأس القارورة، ونحو ذلك، فجعلوا الصاد لقوتها للأقوى، والسين لضعفها للأضعف"[١٦٩].

وكذا في قسم وقصم «فالقصم أقوى فعلاً من القسم؛ لأن القصم يكون معه الدق، وقد يقسم بين الشيئين، فلا ينكأ أحدهما، ولذلك خصت بالأقوى الصاد، وبالأضعف السين[١٧٠].

ومن ذلك سعد وصعد؛ فسعد بالسين المرققة للأمر المستحب، والسعادة أمر معنوي نفسي، فيه اليسر والسهولة والانشراح، أما صعد بالصاد المفخمة؛ فيكون للأمور التي تحتاج إلى عناء ومشقة، كالصعود في الجبل ونحوه، ومنه قوله تعالى، مشبهًا حالة ضيق الصدر للمتكبرين عن الإيمان: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ الأنعام: ١٢٥.

وإذا اجتمع في كلمة واحدة حرفان مفخمان أو أكثر؛ فإن ذلك سيؤدي في الغالب إلى قوة وفخامة معنى هذه الكلمة، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا، مثل:

صرخ: وهو ارتفاع الصوت، وقد استخدمها القرآن تعبيراً عن صوت المستغيث من ألم أو مصيبة أو فجيعة، قائلاً:﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ فاطر: ٣٧، أي في النار، ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ يس: ٤٣.

والشيطان يقول لأتباعه الذين استصرخوه لمّا قُضي الأمر ووقع العذاب عليهم: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ إبراهيم: ٢٢.

وصخّ: وهو الصوت العالي ومنه (الصاخّة) الصيحة تصمّ لشدّتها، ومنه سميت القيامة[١٧١].

وصرعَ، وصرط، وصَعّر، أي: أمال خده من الكِبْر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ لقمان: ١٨. وصغر: وهو ضد الكبر، والصِّغار بالفتح الذل والضيم، والصاغر الراضي بالضيم[١٧٢]وصرم: وهو القطع.

---

١٦٦ - هو ارتفاع وانخفاض في الأرض، مقاييس اللغة (نبك).
١٦٧ - الخصائص ١٦٠/٢.
١٦٨ - المصدر السابق ١٦٢/٢.
١٦٩ - نفسه.
١٧٠ - الخصائص ١٦٢/٢.
١٧١ - مختار الصحاح (صخ).
١٧٢ - المصدر السابق (صفر).

وصعق: ومنه (الصاعقة) نار تسقط من السماء في رعد شديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الزمر : ٦٨، وقصم، وقضم، وصفق: وهو إغلاق الباب بقوة[١٧٢].

وصغا: أي أمال، وخرص، ومنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الذاريات: ١٠، وقضي، وخلق، وخرق، وخصم، وغلط، وغلظ، وطرق وقبض، وقصر، وأغطش، وطغي، وغمط، وقطّ، وغص، وصقر، وقصر، وصبغ وضغط، ولا يخفى ما في هذه الكلمات من القوة والشدة والغلظة.

ولن نجد عناءً كبيرًا في اكتشاف عناصر القوة والفخامة في معاني هذه الكلمات وغيرها، مما كان فيه حرف أو أكثر من حروف التفخيم، على تفاوت في شدتها وإطباقها وجهرها، وفي نوع الصوت التي يقع معها في الكلمة، فإن ممازجة الحرف الضعيف للحرف المفخم قد يقلل من تفخيم الكلمة، وقد تحدث عن ذلك ابن جني قائلاً: «ومن طريف ما مر بي في هذه اللغة التي لا يكاد يعلم بعدها، ولا يحاط بقاصيها ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون، إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف، ونحوهما من ذلك: الدالف للشيخ الضعيف، والشيء التالف، والظليف المجّان، وليست له عصمة الثمين"[١٧٣].

وبهذا الراي نستطيع أن نفسر عدم تأثير الطاء المستعلية -مثلاً- في كلمة لطيف وطريف، وطفيف، وخفيف، وسخيف، ونحو ذلك.. على حين لم تؤثر في كلمات أخرى، مثل (نفق) ومشتقاتها، نحو أنفق: وما يحتاج إلى كثير من الجهد، والنفق: وهو ما يحفر تحت الأرض والجبال، والنفاق وما فيه من الجهد والعسر والتصنع...

وهناك العديد من المفردات بحرف مفخم واحد، وهي تحمل التفخيم في دلالتها، كما في صمد، وقمح، وقد وردتا في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ الإخلاص: ٢، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يس: ٨، أي رافعوا الرؤوس لا يستطيعون خفضها، فهم كمن وضع غلاً من حديد في رقبته.. وكذا في زعق، وشهق، وشرِق، وسحق، وثقل، وكظم، وحرج، وبرق، وزبق، وشمط، وفلق، ومرق، وسمق، وطرق، وأبقَ، وطمر، وقبر، ونحو ذلك، ولك أن تتبع مثل هذه الألفاظ، وستجد أنها تكاد لا تخرج عما قلناه من تناسب فخامة أجراسها، مع فخامة وقوة معانيها.

ويلاحظ أن تشديد حرف الاستعلاء في الكلمة يزيد من قوة معناها أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يس: ٤٩، فهي تدل على استغراق القوم في الخصام واللجاج، وفي قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ﴾ الحاقة: ١، ٢، إذ تدل هذه الكلمة على قوة المعنى وشدة فخامته، وكما في كلمة شطّ، وقطّ، وحقّ، وخطّ، وغطّ.

وكذا في مد الحرف المستعلي مداً طويلاً، حيث يعقبه حرف مثقل، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ النازعات: ٣٤.

وإذا اجتمع حرفا استعلاء مع المد والتضعيف، بلغت قوة الكلمة أوجها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ عبس: ٣٣، فجرس الكلمة يكاد يصم الآذان، ويعبر بحق عن شدة هول صيحة يوم القيامة.

---

[١٧٣] - المصدر السابق ٢/ ١٥٩- ١٦٠.
[١٧٤] - نفسه.

من كل ما مرّ نستطيع القول: إن حروف الاستعلاء لها تأثير كبير على دلالة الكلمة التي ترد فيها، على تفاوت - كما مر بنا - في عدد الأصوات المستعلية الواردة في هذه الكلمة، وفي شدة استعلائها، أو فخامتها، أو إطباقها وشدتها ورخاوتها، وفي تضعيفها ومدها، وما إلى ذلك من العوامل المساعدة، التي تؤكد على تناسب صفات هذه الحروف مع دلالاتها أو معانيها.

كل هذا يدل على أن اللغة العربية لها خصوصية ظاهرة في هذا المجال، وتتمتع بصفات جعلت المتأملين لهذه اللغة قديماً وحديثاً حائرين في أمر نشأة هذه اللغة، أهي توقيفية أم اصطلاحية تواضعية؟ وإن كانت اصطلاحية تواضعية، -وهو المرجح لديّ[١٧٥]فقد هيأ الله لها أذهانًا ذكية، وفطرًا صافية، وآذانًا صَناعًا ذواقة، عرفت كيف تصطفي مفرداتها وتصوغها صياغة شاعرية موسيقية، تناسب فيها بين أجراسها ومعانيها إلى حد كبير، وقد أشار ابن جني وهو يناقش فكرة التوقيف والاصطلاح وفكرة التناسب إلى هذا قائلاً: «كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا، وإن بعد مداه عنا، من كان ألطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر، وأجرأ جنانًا»[١٧٦].

وقد تجد كلمة هنا وكلمة هناك خالفت ما ذهبت إليه، مثل: رقّ، أي أصبح رقيقاً ومشتقاتها، ودقّ، أي أصبح دقيقاً، وكلمة رفيق، وكلمة صفيق، بمعنى الشيء الخفيف، ورحيق، ونحو ذلك، فبعض هذه الكلمات لها من التأويل ما يعيدها إلى النسق الذي رسمناه، مثل: رق ورقيق، التي هي عكس الغلظة والقسوة، فأقول: إن الرقَّ بفتح الراء لا يتأتى إلا بالطرق الشديد، كالسيف، وكل صفيحة، واستعير لما لا يحتاج إلى الطرق، كالصحيفة، وكل ما كان رقيقا بالخلقة أو بالصناعة، والرِّق بكسر الراء، هو العبودية، وتحويل الإنسان الحر أصلاً إلى عبد مسترق وتعريضه لأشد القوة والقسوة، حتى زال عن حريته، وكذلك كلمة دق ودقيق، التي تدل على النعومة ما آلت إلى ذلك في الأصل إلا بعد أن تعرضت للدق العنيف، واستعير هذا الاسم بعد ذلك لما لا يدق، وله صفة الرقيق...

أما كلمة رفيق فإن وجود الفاء فيها هو الذي نال من فخامتها، وكذلك فإن الرفيق الذي يرفق بالناس بأخلاقه وماله وكلامه إنسان عظيم، وهذا المعنى لا يخلو من الفخامة؛ لأن الفخامة ليست دائماً قسوة..

وأما إن عثرنا على عدد من الكلمات عصيت على التأويل، وخالفت ما ذهبنا إليه، فهي لا تقدح بهذا النسق، لأنها تبقى بحكم القليل النادر.

ولا يفوتني في ختام هذا البحث أن أشير إلى أفخم مفخم في الأسماء وهو اسم الله ولفظ الجلالة، فإن اللام فيه رغم كونها في العربية حرفاً مستفلاً مرققاً، إلا أنها وبما تتمتع به من قابلية ذاتية لتكون كاملة التفخيم - كما مر بنا - وجب لها هذا التفخيم عند جميع القراء؛ لتتناسب مع فخامة رب العزة ، سبحانه وتعالى ، وجلاله ومهابته، إلا إذا سبقت بكسر، لما في الانتقال من الكسر إلى التفخيم من صعوبة ومشقة في النطق وهذا ما يتنافى مع السلاسة والانسيابية في النطق، وهو ما تأباه العربية.

---

[١٧٥] - والآية التي يستدل بها من ذهب إلى التوقيف هي قوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَ) البقرة:٣١، تحتمل أن الله تعالى قد خلق في آدم القدرة على تسمية الأشياء وإيجاد اللغة ، وهذا هو ما يفرق الإنسان عن الحيوان، وهو مصداق قوله تعالى: (خَلَقَ الْإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) الرحمن: ٣، ٤، وقد قال بهذا الرأي ابن جني في الخصائص ١٩/١

[١٧٦] - الخصائص ٤٨/١.

فكل الحمد والشكر والخضوع والسجود لمعلي شأن هذه اللغة، ونسأله تعالى أن يطلعنا على مزيد من جمالها وأسرارها، وأن يوقفنا على أسرار إعجاز كتابه الكريم، الذي شرف هذه اللغة، وزادها جمالاً وبهاءً ورفعة وسموًا.

الخاتمة

وبعد.. فهذه إطلالة على أصوات التفخيم في العربية، التي عرفت فيها معنى التفخيم والاستعلاء والإطباق، وميزات هذه الحروف، وأقوال علماء اللغة القدماء والمحدثين فيها.

ثم توقفت عند كل صوت من الأصوات المفخمة دائماً وهي: (خص ضغط قظ) لنبين مخارج هذه الأصوات وصفاتها عند القدماء والمحدثين، وإن كان ثمة فرق حاولت التوفيق ما استطعت بين الرأيين، أو تعليل هذا الخلاف، مع تبيين الرأي الأرجح من وجهة نظر الباحث واجتهاده.

ولقد درست مع حروف التفخيم الدائمة حروفا يعرض لها التفخيم في بعض حالاتها وهي: الألف المدّية، واللام، والراء وبينت أيضاً أقوال العلماء القدماء والمحدثين فيها والحالات التي تفخم فيها.

ثم بينت أثر هذه الأصوات فيما جاورها من الأصوات، مبيناً ما هو مسموح به، وما هو محظور، ينبغي التنبه لعدم الوقوع به، مستعيناً بقواعد التجويد، التي نص عليها علماء القراءات، متأسين بالنطق الشفهي، الذي تناقله الرواة مشافهة، جيلاً بعد جيل، من قراءة جبريل عليه السلام لرسول الله (ﷺ) إلى يومنا هذا.

ثم تحدثت عن الأثر الدلالي لهذه الأصوات المفخمة في الكلمات التي ترد فيها، وقد ترجح لدي من خلال استعراض عدد كبير من هذه المفردات وجود علاقة كبيرة بين وجود هذه الأصوات في الكلمات والمعنى الذي تؤدي إليه، وأن هذه العلاقة تتفاوت في الغالب، بحسب عدد الأصوات المفخمة التي ترد في الكلمة، فكلما زاد اعدد الأصوات المفخمة في الكلمة الواحدة زادت نسبة تفخيم المعنى، كما في غلظ، وطرق، وصخّ، وضخّ.

كما يقوم تضعيف أو تشديد الحرف المفخم بزيادة قوة وفخامة المعنى، كما في شقّ، وشطّ.

وقد يكون للمد اللازم قبل الحرف المفخم المضعف زيادة في التفخيم، كما في الحاقة، أما إذا كان المد مسبوقاً بحرف مفخم، فإن الفخامة تبلغ أوجها، كما في قوله تعالى: (الصاخة).

ثم بينت أن هذه القاعدة قد لا تطّرد في ظاهر بعض الكلمات، مثل رق، ودق، ولكننا بالتأويل نستطيع أن نردها إلى النسق الذي رجحناه.

ولكن مع ذلك فهناك عدد من المفردات يخالف هذا النسق، وهي قليلة، والقليل لا يفسد حكم الكثير.

كما يظهر جليًّا من خلال هذا البحث أن للعرب قديمًا جهودًا علمية طيبة في مجال علم الأصوات سبقوا بها العالم أكثر من ألف سنة، في الاستقصاء والدقة والضبط، وكان دافعهم في ذلك حب هذه اللغة، والإعجاب بها، كما يظهر من أقوالهم، والحفاظ عليها من الضياع والتحريف والتغيير، الذي يسري عادة على أي لغة، ما لم يحطها أهلها بالرعاية والضبط والمراجعة والتقعيد.

ولقد كان هؤلاء العلماء بجهودهم وصنيعهم العظيم هذا ستاراً لقدر الله تعالى، مصداقًا لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر:٩.

وأخيرا: بعد هذا العرض الموجز حول أصوات التفخيم في العربية وأثرها الدلالي، فإني أوصي بما يلي:

١ – الاهتمام بدراسة مخارج الحروف وصفاتها وإجراء لبفحوص المعملية الحديثة لهذه الأصوات للوصول إلى نتائج حاسمة حول الاختلافات بين القدماء والمحدثين، وأن تجرى هذه الفحوص على قراء القرآن المتقنين.

٢ – التوسع في دراسة الأصوات في أقسام اللغة العربية، والتركيز على النطق الصحيح وتجنب الآثار اللهجية المخالفة للنطق الفصيح.

٣ – إعطاء مادة التجويد أهمية كبيرة في المدارس والجامعات وتأمين المدرسين الأكفاء لها

٤ – التوسع في ملاحظة الأثر الدلالي لجرس الحروف في الكلام العربي، وإجراء بحوث إحصائية توصلنا إلى نتائج مؤكدة، فإن في ذلك تعزيزا لأهمية اللغة العربية في نفوس العرب وغير العرب، وتحفيزا لأهلها للحفاظ عليها والاعتزاز بها.

ثبت المصادر والمراجع

ـ الأنطاكي، محمد، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشرق العربي، بيروت، ط٢.

ـ أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٥، ١٩٧٥.

ـ بشر، كمال، علم اللغة العام والأصوات، القاهرة ١٩٧٠.

ـ ابن الجزري، محمد بن يوسف(٨٣٣ه)، التمهيد في علم التجويد، تحقيق: د. غانم قدوري حمد، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٩.

ـ ابن الجزري، محمد بن يوسف(٨٣٣ه)، النشر في القراءات العشر، دار الفكر.

ـ ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٥ه)، الخصائص، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٣.

ـ ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٥ه)، سر صناعة الإعراب، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٣.

ـ الحصري، محمود خليل، أحكام قراءة القرآن الكريم، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٦.

ـ الرازي، محمد بن أبي بكر (٦٦٦ه)، مختار الصحاح.

ـ الزمخشري، جار الله بن محمود بن عمر، أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله بن محمود بن عمر (٥٣٨ه)، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.

ــ الزيدي، د. كاصد ياسر، فقه اللغة العربية، ، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٧.

ــ سيبويه، عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة،1988 .

ــ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (٩١١ه)، المزهر في علوم اللغة، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى ورفيقيه، مطبعة البابي.

ــ الصقلي، ابن مكي، تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تحقيق: د. غانم قدوري حمد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩.

ــ ابن عباد، الصاحب بن إسماعيل، الفرق بين الضاد والظاء، تحقيق: الشيخ محمد حسين آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٢.

ــ عثمان، حسني الشيخ، حق التلاوة، مكتبة المنار، الأردن، ط٧، ١٤٠٧ه .

ــ ابن فارس، أحمد بن زكريا (٣٩٥ه)، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: د. مصطفى الشويحي، مؤسسة بدران، بيروت، ١٩٦٣.

ــ ابن فارس، أحمد بن زكريا (٣٩٥ه)، مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبي عمرو، دار الفكر، ط٢، ١٩٩٨.

ــ الفراء، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار وآخرين، ط١، دار الكتب، مصر، ١٩٥٥.

ــ الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٥ه)، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت.

ــ القشيري، مسلم بن الحجاج (٢٦١ه)، المسند الصحيح المختصر، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ــ القيسي، مكي ابن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار عمان، الأردن، ١٤٠٤.

ــ المحبي، محمد الأمين فضل الله، قصد السبيل فيما في اللغة العربية من دخيل، تحقيق: د. عثمان محمود الصيني، مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٩٩٤.

ــ المرعشي، محمد بن أبي بكر(١١٥٠ه)، جهد المقل في التجويد، مطبعة إلياس ميرزا اليورغاني، ١٨٩٨، ومعه بيان جهد المقل، للمؤلف نفسه.

ــ نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد في علم التجويد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٤٩ه .

ــ ابن هشام، عبدالله بن يوسف، مغني اللبيب، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، مراجعة: سعيد الأفغاني، بيروت، ط٥، ١٩٧٩م.

ــ ابن يعيش، شرح المفصل، المطبعة المنيرية، مصر.

ـــ الهروي القاري علي بن سلطان محمد ابو الحسن نور الدين الملا، الأسرار المرفوعة في الاخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧١ تحقيق: محمد الصباغ

ـــ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت.